

## عبد الرحمن بن خلدون

بمحت نقدي في حياته واسلوبه وآرائه

٢

### مؤلفاته وتحليلها

كان اول ما نشر من مؤلفات ابن خلدون مقدمته التي طبعها في باريس المستشرق الافرنسي Quatremère سنة ١٨٥٨ في ثلاثة مجلدات . وله في ذلك الفضل الصميم اذ اليه يرجع الفضل في تمهيد السبيل لكل من مجرد يده للبحث في حياة المترجم ومؤلفاته . وقد ترجم المقدمة الى الانجليزية البارون دي سلان De Slane سنة ١٨٦٢ و اضاف اليها بحثاً ضافياً في حياة المؤلف ، مع شروحات مفيدة . وترجمها ايضاً الى التركية محمد پيرزاده

وما يسمى اليوم بمقدمة ابن خلدون ، يتألف في الحقيقة من مقدمة تاريخه الكبير مضافة الى الكتاب الاول منه . وموضوع المقدمة بتحديد صاحبها «علم التاريخ وتحقيق مذهبيه والابحاح بمناظرة المؤرخين» واما الكتاب الاول وهو القسم الاكبر من المقدمة المروفة فيبحث في العمران وما يعرض فيه من الصوارض الذاتية من الملك والسنطان والكسب والمعيش والصنائع والعلوم وما الى ذلك من اللل والاسباب ، وقد نال ابن خلدون ما نال من الشهرة والمكانة من اجل هذا القسم الصغير من مؤلفه في التاريخ . وما ذلك الا لأن المقدمة تحتوي على ملخص آرائه الفلسفية وجميع ما استحدثه من الابحاث على اختلاف موضوعاتها . ولانها فوق ذلك تمثل حقيقة الفسوة التي بلغتها العلوم الاسلامية في تطوروا اثناء القرون السبعة السابقة . وما نحن ندرج للقارى موضوعاتها حسبما اعاد ترتيبها وقصصها الدكتور طه حسين ، ونحن نميل الى الاعتقاد بان عمل الاستاذ هذا هو اجل واقع ما قام به في كتابه المشار اليه . فقد رتب ابحاث المقدمة في سبعة فصول عنوانها كما يأتي :

١ الظواهر المستقلة عن الاجتماع

٢ الظواهر الاجتماعية للحياة البدوية

٣ الظواهر الاجتماعية لحياة الحضرة — السياسية

٤ الخلافة والامامة

٥ الخواص العامة لحياة الحضرة

٦ وسائل الكسب

٧ العلوم والصنائع

وتلا المقدمة في النشر تاريخه الكبير الموسوم «كتاب البر وديوان البتدا والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن طاصرهم من ذري السلطان الاكبر» وقد تم طبعه في بولاق بمصر سنة ١٨٩٧ ، فجاء في سبعة مجلدات . وقد كنا نتظر ان يطبق المؤلف اراءه الواردة في المقدمة على اسلوب البحث في تاريخه ، يد انه لم يفعل من ذلك شيئاً بل سلك سبيل من تقدمه من المؤرخين العرب كاطبري والمسعودي وغيرهما ، اللهم الا في امرين فقط لم يأت هو على ذكرهما في مقدمته حين نقد المؤرخين . فلامر الاول انه كان اول من عدل من المؤرخين عن اتباع الطريقة الخيرية بالترتيب السنوي فقسم تاريخه الى عدة اجزاء اختص بكل منها امة او اسرة . والثاني ان تاريخه يتاز عما سبقه من كتب التاريخ بما تضمنه من المقدمات الاجتماعية والفلسفية في صدور اكثر الفصول حين ينتقل في البحث من دولة الى اخرى . ويمكننا حصر ابحاثه في تاريخه تحت ثلاثة عناوين : —

اولاً اثر الحضارة في الانسان

ثانياً تاريخ العرب من اقدم الازمنة الى ايام المؤلف

ثالثاً تاريخ الام البربرية منذ احتكاكها بالعرب

ويلحق بأخر تاريخه الكبير سيرته التي كتبها بنفسه وسمّاها ، رحلة ابن خلدون ، وهي عند التحقيق تاريخ لملائقة السياسة ، وترجمة لكل من اتصل بهم من العلماء والامراء . وقد خص البارون دي سلان De Slane موضوعاتها في اربعة عناوين رئيسية هي : — (١) تاريخ اسرته (٢) اساتذته ودراسته (٣) علائقه السياسية بكل ما تضمن من احوال تلك الايام (٤) مجموعة من شعوره ، ومراسلاته مع ابن الخطيب وغيره من الادياب

وقام اعلام المستشرقين بنشر غير ذلك من كتابات ابن خلدون وترجمة ما يهمهم منها . فطبع البارون De Slane القسم المختص بالمغرب في الجزئين السادس والسابع من التاريخ الكبير في الجزأين سنة ١٨٤٧ ، ثم نشر ترجمتهما بذلك بقليل الى الافرانية ،

وصدرها بمقدمة طويلة ومعجم مفيد لاسماء الامكنة الواردة في الكتاب وترجم انيسو Demombynes الافرنسي كل ما اختص بتاريخ بني الاحمر في الاندلس ، فنشره في المجلة الاسيوية (١) وفاز Fornberg الاسويجي بشكر كل ما ورد في تاريخ ابن خلدون عن حملات الافرنج في بلاد المسلمين . وقد بلننا ايضا ان الاستاذ Casanova الذي توفي في العام السابق ، درس وجهة اخرى من تأليف هذا المفكر لم نؤكد بعد ماهيتها

هذا وللترجم مؤلفات اخرى لم يبق لنا منها سوى اسمائها ، قد ذكرها صديقه ابن الخطيب في كتابه « الاحاطة » ونقلها عنه المقرئ (٢) وكلها كما نرى خارجة عن موضوع التاريخ زهي . (١) شرح البردة . (٢) كتاب في الحساب . (٣) شرح رجز في اصير الفقه . (٤) عدة اختصارات لبعض كتب ابن رشد  
ابن خلدون مؤرخاً

رأيت في تحليل تاريخه الكير ان ابن خلدون كؤرخ لا يكاد يمتاز بشيء عن سواه من المؤرخين بيد انه علينا ان نفرق بين تدوين التاريخ وتقديمه النظري . ومع ان المترجم لم يأت بشيء جديد في تاريخه من حيث التدوين والرواية ، فهو اول من بحث في التاريخ فاستخرج منه علماً قديماً نظرياً . ويرى الدكتور طه حين انه قلده بذلك علماء الفقه ، وسلك سبيلاً الى التخصيص عرفه المسلمون حينذاك واستملوه . وقد رأى الفقهاء يستخدمون علم الاصول للدرس تطورات الفقه وتاريخه ، ورأى المتكلمين يستعملون المنطق للثبوت من صحة جدلم الديني ، ورأى فوق ذلك رواية السنة والحديث يستعملون بطريقة الجرح والتعديل التي ابتدعوها للتحقق من صدق الحديثين وامانتهم . فمزج ابن خلدون ان يبتكر للتاريخ علماً يامل تلك العلوم يتخذها وسيلة في تجميع الروايات والتأكد من امانة اصحابها . وكان العصر عصر الموسوعات والحمايع كما يننا حين نظرنا الى العصر الذي نشأ فيه المترجم ، فوجد فيها المادة الكافية لتوسيع فكرته الجوهرية ودعم تعديلاتها . ولكن لا يجب ان نسينا هذه الفرص والتسهيلات ما لابن خلدون من الفضل في ابتداع علمه المستحدث ، إذ البراعة كل البراعة في استثمار ما عرف من المعلومات والاستفادة من الاحوال التي احاطت به

(١) راجع Journal Asiatique السنة ٩ ، المجلد ١٣

(٢) في فتح الطيب .... ) طبعة معزج ، ص ٩١ ،

والتاريخ على حدّ قوله ( لا يزيد في ظاهرو عن الايام والدول والسوابق من القرون الاول . . . . وفي باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع واسبابها عميق ، فهو لذلك اصيل في الحكمة عريق ، وجدير بان يمد في علومها وخلق<sup>(٣)</sup> . » فالتاريخ على ما ترى في نظره علم فاسفي موضوعه الحياة الاجتماعية بكل ما فيها من المرافق والمؤسسات . وقد درسه فوضع لنقده ثلاثة مقاييس . اولها : التشيع في الكتابة وثانيها : سهولة تصديق الرواة واما الثالث : فالجهل بطوائف الاحوال في العمران ، وهو في نظره اهمها واعمها شيوعاً وليست مقدمته وكل ما اشتهر به من الآراء الاجتماعية المبكرة سوى شرح وايضاح وضمة لهذا العلم الذي استحدثته واطلق عليه اسم ( العمران ) . ويستخرج من عليه هذا ثلاثة قوانين رئيسية هي المرجع لجميع آرائه التاريخية : —

- ١ قانون العلمية ، او ربط الاسباب بمسبباتها وهذا الجديد ين في كل اجزاء المقدمة
- ٢ قانون التشابه ، او كما يقول « قياس الماضي بالحاضر والغائب بالشاهد »
- ٣ قانون التباين ، حيث يقول « ومن الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الاحوال في الامم والايال بتبدل الاعصار ومرور الايام »

وقد اختلف العلماء العصريون في ماهية هذا العلم الجديد وحقيقته فقال Nesendouk انه تاريخ الحضارة ، وسماه الدكتور طه حسين بالفلسفة الاجتماعية ، وقال Gemplowicz لا بل هو علم الاجتماع عينه . وارتأى غير هؤلاء آراء اخرى في موضوع المقدمة . غير اننا لا نرى مسوغاً لقبول مثل هذه التحليلات ، ونعتقد ان مقدمة ابن خلدون لا تزيد عن كونها اول مؤلف في النقد التاريخي ولئن وجدت فيها مباحث في العلوم المختلفة كالاقتصاد ، والنباسة ، والدين ، والفلسفة ، والثروة ، وما الى ذلك ، فلا نأخذها الاّ انها مباحث ثانوية التجأ اليها المؤلف لشرح غايته وهدفه الوحيد من مقدمته هو اعداد علم مستقل ينقد به التاريخ . واذا زدنا على ذلك ان هذا ما يقوله هو بشأن مقدمته ، وتذكرنا ان المقدمة هذه لا تزيد عن كونها ، كلمة افتتاحية ، ازاء باقي مؤلفه وهو تاريخه الكبير ، عرفنا بل نأكدنا ان موضوع المقدمة هو النقد التاريخي ليس الاّ

ولا تنكر ان المؤرخ المغربي باتخاذ التاريخ موضوعاً للتأمل وقاعدة لاستخراج

(٣) مقدمة طبعة بيروت سنة ١٩٠٠ ص ٤

القوانين العامة قد ساء فهم التاريخ بضع الشيء. لان كل ما يُسنى به المؤرخ الحديث هو جمع الحقائق الماضية وعرضها بطريقة مضبوطة منظمة ، دون أن يستخرج منها العبر والدروس. الا انا لا نكاد نرى لان خلدون مناصباً من هذه الاميال الفلسفية حين تحفز لتقد التاريخ . ولا يسعنا الا ان نخالف رأي الدكتور طه حسين في هذا الشأن حيث يشبه المقدمة بكتاب Montaigne فيقول « ليس في وسعنا مثلاً ان نقول ان ، روح القوانين ، كتاب علمي او تاريخي ، بل هو مؤلف فلسفي . فاذا نحن راعينا فروق العصر والحضارة والذمن اتينا تقارباً عظيماً بين ذلك المؤلف ومقدمة ابن خلدون » لانه باصداره هذا الحكم قد تعاضى عن الثاية التي كتب من اجلها المؤلف كما يشاء. واذا تذكرنا المرض الاساسي الذي من اجله ألف ابن خلدون مقدمته ، ولوائه اضطرد في كثير من المواقف ، حقاً لنا ان نعتبرها الحجر الاساسي الذي قام عليه النقد التاريخي Historical Criticism . وان اردنا ولا بد ان نقابلها باحدى المؤلفات فلا اقرب اليها بالاسلوب والموضوع من مؤلف الايطالي (٤) الذي عاش بعد المؤرخ المغربي بثلاثة قرون وكين اول من طرق هذا الموضوع من الافرنج واما الطريقة التي سلكها مؤرخنا في بحثه فهي علمية محضة ، حديثة من عدة وجوه . إذ بحث في التاريخ بحثاً استقرائياً ، وشاد قوائمه العلمية وتسمياتهِ الفسفية على الحقائق التي عرفها وتعب في جمعها . بيد اننا نقدر منهجه في امر جوهري واحد ، وهو عدم اكثرائه لفحص المصادر التي استقى منها الحوادث ، والتي جعلها اساساً لاستخراج علمه الفلسفي . ومثله في ذلك على حد قول الانكليز مثل من وضع العربية امام الحصان ، إذ انكل في كتابة ما وضعت نقد التاريخ ، على حقائق لم يهتم بتحصيلها قبل ان يتخذها قاعدة لاستنتاجاته . وكان الاجدر به ان يبدأ اولاً بكتابة تاريخه على الطريقة العلمية الصحيحة ، ثم ينتقل بعد ذلك الى ابحاث المقدمة التي تبني عليها . فيكون حينئذ قد تأكد من رسوخ قاعدته التي يبيد عليها . وله خطأ آخر هو محاولته وضع قوانين عامة للتطبيق ، مع انه يبني تاسيسه على ما عرف من تاريخ الامم الاسلامية فقط وهو لا يكاد يعرف سواها من تاريخ الشعوب الاخرى . ولكن لان خلدون الفخر بان Müller العالم الالماني قد رأى بعد الدرس الصيق ان آراءه

(٤) واسم كتابه "Principe de la Philosophie de l'histoire" طبعة

باريس سنة ١٨٢٧

المتنبطة، تطبق بكليتها على تاريخ الاندلس والمغرب وصقلية فيما بين القرن الحادي عشر والخامس عشر، ولا غرابة في ذلك، لان هذا جل ما عرفه ابن خلدون قبل ان شاد فلسفته

والتطور في نظر ابن خلدون طبيعي في الجماعات، ترتبط الحلقة منه بما يسلسل بعدها. فالحاجة تدعو الى الغزو ويقتضي ذلك ضرورة تأسيس الزمامة، فلا تلبث القبيلة البدوية ان تتحضر في المدن. فاذا ما كثر فيها الاتاج حصل البذخ واستسلم السكان الى الدعة والحمول. فتزوم على الاثر قبيلة اخرى ذات عصبية وشوكة تقتضي عليهم وتؤسس على انقراض حضارتهم تمدناً جديداً، وهكذا دواليك. والقارى المتبصر يرى ان في مثل هذه النظرية اشارة بل تلميحاً الى النظرية التاريخية الحديثة القائلة بأزتياب الحوادث وتسلل الواقعات (The Continuity of History)

واذا كانت بعض اراء ابن خلدون في كيان الجماعات المركبة وتطور انظمتها بجملته في اسمى مراتب المؤرخين الفلاسفة، فان ما يزود من شارب كبير للعمل والملاكة والاجرة بخولة مكانة رفيعة بين اقتصادي هذا العصر. انيس استنباطه على تقدم الزمن، ان مرافق الحياة وشروط المعاش ومقوماته فعلاً كبيراً في نشأة الطبايع واكتساب الملكات الجديدة، دالاً على بمد نظريته ونفاذ بصيرته؟ فنقد بحث في الجزء الثاني من القسم الخامس من مقدمته في الملاكة وتقسيم الاموال، والرزق ووجوه تحصيله. وبحث في موضع آخر في موضوع السلطان السياسي وطبقات الاجتماع، منوهاً في أثناء ذلك كله بملاقة هذه العوامل بالتاريخ وتأثيرها في سير مجراه. فهل بالغ بمد ذلك كله، ان قلنا ان ابن خلدون هو الامام لمن يحاول اليوم شرح التاريخ وكتابه من الوجهة الاقتصادية (The Economic Interpretation of History)

وللقارى دليل آخر على عظمة الرجل واتساع عقله. فقد اعتبر الحياة الاجتماعية بكل ما تتضمن من المرافق والمؤسسات موضوعاً لبحثه، واراد ان يشرح تاريخ الانسانية باوسع معاني الكلمة فجاز بالناية او كاد حين تكلم عن (الظواهر المستقلة عن الاجتماع) لعدم ارتباطها باختلافات الزمان والمكان. وفشل بعض الشيء في القسم الاكبر من مؤلفه حيث تناول (الظواهر الاجتماعية للبدو والحضر) وذلك لاقتضار معلوماته كما قدمنا على الشعوب الاسلامية، ولتنوع هذه الظواهر واصطباغها بمكيمات الاقليم والبيئة والدين. ونحن لا نقول خشية التطرف الا ان جهود المؤرخ المغربي

هذه، قد تذكرنا بميول بعض مفكري العصر الحاضر ومؤرخيه امثال H. G. Wells<sup>(٥)</sup> و J. H. Robinson<sup>(٦)</sup> الذين تطمح قوسهم لجمال التاريخ مسرحاً للعالم، تقوم الانسانية بتثيل ادوارها عليه

### ابن خلدون فيلسوفاً

لقد كنا نستطيع ان نلحق هذا الفصل بما سبقه، او ان ندرج قسماً كبيراً مما اسلفنا من آرائه المختلفة تحت هذا العنوان، لشدة ما بين هذه الموضوعات من علاقة في مباحث ابن خلدون العلمية. الا انا وأبناء، طلباً لتبويب وطبعاً في الوضوح، ان نخصص للبحث في آرائه الفلسفية الصرفة، فصلاً مفرداً.

اشهر المترجم بايماليه الفلسفية، مع انه اتخذ لنفسه التاريخ حرفه، ولعل في ذلك ما يساعدنا على فهم مقدمته وما استطرده اية فيها من شتى الابحاث. لم يرض ابن خلدون عن الفلسفة المدرسية كما عرفها اهل زمانه، لان عقلية العلية كما حفتها لم تنفق وقواعدها الموضوعية. والعالم في نظر مؤرخنا اوسع من ان تحيط به نظريات الفلسفة واوضاع المنطق، ويرى ان ليس لعالم الحقيقي الا ان يسير الحوادث بفكره الصائب ويتدبر اختاراته اليومية كما يصل الى الحقيقة الناصبة في العلم والفلسفة.

فان خلدون سلك في الفلسفة سبيلاً يختلف عن طريقة ارسطو واتباعه، فهو لم يخلق للبحث في السبب الاول والزوج وما الى ذلك من الابحاث التجريدية، بل قال ان الفلسفة علم للموجودات يجب تحقيق قواعدها بالامور التي تشاهد وتحس. وعلى ذلك كان التاريخ في نظره علماً فاسئياً، لان طبيعة الانسان نابعة على كروار الايام، ويمكنك ان تقابل العصور فتثبتت من حوادثها باختاراتك اليوم. والمترجم اقرب ما يكون في آرائه الفلسفية هذه، الى مدرسة الفلاسفة الوضيين Positivists واليه يعود الفخر في تقرير تلك القواعد الاجتماعية التي تحسبها اليوم بسيطة مبتذلة وما هي حقاً الا القاعدة الاساسية التي شاد عليها هؤلاء المباحثم

وتماز فلسفته عن فلسفة القرون الوسطى ايضاً، بتابعدها عن الدين. فان ابن خلدون مع كونه من المؤمنين بما فوق الطبيعة كبقية مفكري الساسين، حاول

(٥) راجع مقدمة كتابه The Outline of History طبعة نيويورك سنة ١٩١٥ ص ٦

(٦) اطلب الفقرة الثامنة من الفصل الثاني في كتابه The New History

ان يخضع هذه الاعتقادات لسלטان النظام (Scheme) ان لم تفل لسלטان العقل (\*) وليس للدين في فلسفته وطريقته تفكير من كبير أثر، فهو قد قبل به اما عن عقيدة واسخة او لاسباب سياسية لا تزال نجعلها. ولذا لا تراه يلتجئ الى استعمال ما وراء الطبيعة والكلام الا في المواضع التي لا تخضع للطريقة التجريبية العملية، والمشاكل التي تخرج عن دائرة الاختبار

ونأخذ عليه امراً واحداً في فلسفته، هو ميله من حيث التفكير الى المدرسة النفعية Utilitarianism. وانت تصادف هذا الميل في مؤلفه بين الآونة والاخرى، حتى تبدأ لك مائة في فصله عن العلم والتعليم. فقرأه لا يقيم للعلم وزناً الا بمقدار نفعه وقائدته، اذا قسم العلوم الى نوعين اولها مفيد بذاته، والاخر واسطة لهذه العلوم النافعة. والنوع الاول في اعتقاده اهم بكثير من الثاني، ولا قيمة البتة لسوى هذين النوعين من العلوم. غير اننا متى وزنا الرجل بيزان العصر الذي عاش فيه، وراعينا انفايس الخلية والاخلاقية لتلك العصور، وجدناه متميزاً عن اترابه من بني زمنه، مسابقاً لعصره في كثير من مآثره

#### الجامعة

والخلاصة ان ما من عالم يبحث في كتابات ابن خلدون معها كان يبسطه واحتصاصه الا ويستتج منها المعلومات الطريفة عن نفسية هذه الشخصية الكبيرة وحقيقة آيائها. وقد سبق لنا فقلنا ان الدرس العلمي الصحيح في حياة المترجم ومؤلفاته ما زال يمد برعم لم يزهر. وليس هذا المقال سوى نظرة اجمالية الى الموضوع كما عرفه اليوم، نجاسرنا فيه على الادلاء ببعض الآراء الشخصية ولا ندري هل يشبها البحث العلمي المستمر، او يقوض اركانها. بيد انه اذا كان البارون دي ساسي الانرسي (De Sacy) قد لام جبهة المستشرقين لتركهم مثل هذا الموضوع الخطير، وانصرافهم الى الابحاث النافهة من المشرقيات (\*) فاحرى بنا نحن ان نلوم انفسنا لاهمال مثل هذه المباحث الهامة في التاريخ العربي

شكري مهدي ب. ع

بيروت

(٧) اطلع كتاب "The Religious Attitude and Life in Islam"

Macdonald ص ٤٥ - ٤٦ (٨) راجع مقالة عن ابن خلدون في مجلد Biographic Universelle المجلد (٢١) ص ١٥٣